

## المقال السادس

### الطب الإغريق

لقد سبق أن تناولنا طب قدماء المصريين وتطوره، منذ بدايته في جو بخور السحر ووصفات العلاج الطبيعي، إلى قمة ذروته التي تجسدت في (قرطاسة إدورين سميث)، وأشرنا إلى أن أحكامنا عليه ابتدائية، سوف يستأنفها التاريخ لقلة معلوماتنا عنه، ونوهنا إلى احتمال، بل إلى تأكيد وجود تعليم سرى، لم يكن ليسجل على السردى، ولا ليلقن إلا في أذن المطلعين... ولكنه أرسخ (لأبقراط) وأسلافه أسساً متينة شيّدوا عليها بناءهم الخالد.

وإذا قبلنا جدلاً أن الذهن المصرى - إذا لم ينتب البلاد ما أصابها على يد الفرس وغيرهم من الغزاة الغاشمين - كان سوف يقدر له استمرار التطور، والوصول إلى ما امتاز به العقل الإغريق من الحرية وحب المنطق، فإنه يجب علينا أن نعترف بأن اتجاهات الحضارتين - المصرية والإغريقية - الذهنية والمادية والروحانية اختلفت في الواقع اختلافاً جوهرياً، بصفة خاصة في آخر عهد الفراعنة عندما رزحت مصر تحت سلطان أباطرة الفرس، حين ظل المصرى المثقف يحن إلى الماضى المجيد، على حين أفاق الإغريق المغامر إلى الأفاق المجهولة.

أما الطب فما هو إلا جزء من تاريخ شعب وفلسفته، ويمكن القول بأن لكل شعب من الطب ما يستحقه، لأنه ثمرة من ثمار فكره وتجاربه، تتفاعل فيه وجهتان، الوجهة التجريبية الحسية، والوجهة الاستقرائية التفسيرية، فإذا كانت النظريات تبنى على الملاحظات، فإن الذهن يختار - دون قصد - من تلك الملاحظات ما يناسب اتجاهاته الخفية ويلتزم نظرتة إلى الكون والطبيعة.

ولقد تميز الفكر الإغريق بجرئته وانطلاقه، لم يخضع لسلطان الكهنة والتفكير اللاهوتى

كما فعل في مصر وفي غيرها من البلاد، بل إن الإغريق كادوا يعدون الدين ميداناً قاصراً على الشعر والقصص والفن المسرحي، وأكثر من هذا فإنهم حين تأثروا بأساطير غيرهم من الشعوب، أنزلوا آلهتها من سمائها وجعلوها كالبشر.. ومنحوها أحاسيس الأدميين وعواطفهم، وأضافوا إلى سلوكها مظاهر ضعفهم من رذائل وعيوب. ومن هنا استطاعوا أن يتغلبوا على مخاوف الإنسان البدائي وأن يتقبلوا كل المذاهب وأن يعترفوا بجميع الآلهة، ولذا فإن، عندما أصبحت أثينا مركز الإشعاع الفكري في العالم في عهد (سقراط، وبركليس، وأبقراط)، تلاقت لديها كل مستحدثات العالم القديم، وتقابلت عندها كل المذاهب التي أخضعها فلاسفتها للتحليل النقدي يقيناً منهم أن كل رأى جدير بالبحث والتحصيل والنقاش. وقد أدت هذه الحرية الفكرية إلى نتيجتين:

**أولاهما،** أن أثينا عرفت عهداً تميز بازدهار العلوم والفلسفة، الأمر الذي جعل منها ومن وريثاتها مدارس العلم حتى عهد العرب.

**والنتيجة الثانية،** هي أن هذه الحرية الفكرية ولدت انقسامات داخلية لا حصر لها... انقسامات أدت إلى الضعف والتفكك، ثم إلى الانهيار - في النهاية - أمام عدوان المقدونيين والرومان وغيرهم.

### كريت:

كان جزيرة كريت مهد أول حضارة للشعوب الإغريقية. أما عن نشأة الطب فيها، فإننا لا نعرف عنها شيئاً عدا ما جاء ذكره في شعر (هوميروس)، هذا مع أن حضريات قصر كنوسوس في جزيرة كريت، الذي اتدثر في القرن الرابع عشر ق.م، أي قبل (هوميروس) بثلاثة قرون.. مع أن هذه الحضريات كشفت عن معرفة تامة بقوانين الصحة ووسائل التخلص من الفضلات والمياه المنزلية، وليس هذا بغريب بالنسبة إلى شعب كريت إذ إن لفائف البردي المصرية التي ترجع إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد تذكر على هامش بعض الوصفات أنها وصلت إلى مصر عن طريق الشعب «الففتي»، والمقصود به سكان كريت.

وحين هدمت كنوسوس وانطقت شعلة كريت - انتقلت الحضارة الإغريقية الأولى

إلى جنوب بلاد اليونان في البيلوبونيس، حيث دارت الأحداث التي رواها (هوميروس) في (الإلياذة والأودسة).

### الطب في أشعار هوميروس :

كان (هوميرس)<sup>٩٣</sup> شاعراً تتحولاً، يروى لمن يلتفت حوله من المستمعين الأساطير التي نشأت حول (حصار طروادة)، ومغامرات (أوليسين)، مما دون بعد في (الألياذة والأودسة). ويقال إنه كان يقرون إنشاده بالعزف على الربابة كما يفعل اليوم رواة قصص عنتر وأبي زيد. وقد ذهب النقاد - بادئ الأمر - إلى أن منظومات (هوميروس) إن هي الا وليدة خيال خصب لا يرتكز على الحقائق التاريخية. وظل هذا الرأي سائداً إلى أن انتهى علماء الآثار بالتحقق من صحة الروايات التي احتوتها هاتان الملحمتان ووفقوا في اكتشاف (طروادة) وغيرها من المدن الأثرية البائدة، بل اهتموا إلى أماكنها بفضل ما ورد في شعر (هوميرس)

وقد جاء في شعره وصف لمائة وأربعين جريحاً توفي منهم ٧٧,٦ في المائة وكانت نسبة الوفيات من جراء الجروح بالسيوف والرمح أعلى منها فيمن أودت بهم السهام، وذكر كذلك الطريقة التي كانت تعالج بها الجروح، أي بنزع السلاح أو الجسم الغريب من الجرح وإيقاف النزيف، ثم يوضع الكمادات، والمساحيق المستخلصة من الجذور، والأربطة.

ويستمد من شعر (هوميروس) ومن الأدب الإغريق القديم أن أطباء هذا العهد عرفوا المخ والنخاع ووصفوا نسيجاً أطلقوا عليه لفظة (نضرون)، وهي تترجم اليوم بالعصب. غير أنهم ضموا تحت لواء هذه التسمية أوتاراً وأليافاً مختلفة، شأنهم في هذا شأن قدامى المصريين بلفظة (ميتو) وشأن الكثير من الشعوب في لغتها غير العلية.

ويبدو أنهم - لمشاهدتهم ما يصاحب الأنفعالات النفسية من خفقان واضطراب في التنفس وانقباض في ناحية المعدة - وضعوا مركز الحياة في الحجاب الحاجز في رأى البعض، أو في القلب، أو في الكبد، في رأى البعض الآخر، وقد ظلت فئسة من العلماء والفلاسفة تعتقد - قروناً بعدهم - أن مركز الدهن والإحساس هو القلب، ومن هؤلاء (أنبادقليس، وأرسطو، وزينو).

كم أنهم أسندوا إلى النفس - بمعنى الهواء المستنشق - أهمية قصوى، وقالوا إنه يحمل لنجس الطاقة والقوة، ويشع فيه الحيوية، وينقل الأحاسيس، وبالاختصار إنه مركز الروح، إذ إن الروح تغادر الجسم عند الوفاة مع آخر نفس.

ومع ذلك فإن معلوماتهم التشريحية - مع ضآلتها - تبدو في هذه القصص على جانب لا بأس به من الصحة، لا سيما تلك التي تخص العظام والعضلات والمفاصل، ويظهر طبهم بمظهر تجريبي عملي لا تشوبه الشعوذة ولا تتدخل في شئونه الآلهة، أى أن الأطباء كانوا من المحترفين غير اللاهوتيين، وكان هؤلاء يتمتعون بمكانة رفيعة في المجتمع إذ إن (هوميروس) قال عنهم إن قيمة الواحد منهم تفوق عدد كبير من الرجال. ومن الطريف أن (أسقلابيوس) - وهو الذى رفع فيما بعد إلى مصاف الآلهة واعتبر (ابن أبولو) - كان في شعر (هوميروس) ما يزال يوصف بأنه رجل عادى تلقن الطب على (الفتطور شيرون) الذى كان نصفه الأمامى إنساناً والنصف الآخر حصاناً تبعاً لأساطير الإغريق، دون ذكر شيء عن ألوهيته، أو عن الطقوس التي ارتبطت باسمه فيما بعد.

ولم تشب الطب شعوذة الجن والعمفارت والآلهة إلا في المؤلفات التي ظهرت بعد (هوميروس)، عندما اختلط الإغريق بالآسيويين وتأثروا بأديانهم، وهذه الحقبة هي التي سيطر فيها كهنة (أسقلابيوس) على الطب ووسائل العلاج.

### أسقلابيوس :

اتفق المؤرخون على أن صورة (أسقلابيوس) النهائية (شكل ٦-١) جاءت نتيجة تبلور تدريجي نجم عن تطور وامتزاج شخصيات آلهة مختلفة، ولا سيما الآلهة التي كانت تهيمن على مناطق الجوفية، وليس من شك مثلاً في أن التقاليد التي كانت ترجع إلى الأزمنة الغابرة، والتي كانت تتصل بالعلاج وترتبط بعبادة الثعبان - وهو رمز التسوى الجوفية وأختها - ليس من شك في أن هذه التقاليد سلكت طريق التطور نفسه. هذا الثعبان برز يذب دوراً هاماً في ميدان الطب السحري القديم، ويظهر بين أهم مميزات إله الشفاء عند البابليين، ويلتف حول (عصا أسمون) الإله السامى في سوريا وفلسطين وفينيقيا، وتقام له تماثيل من الحجر والبرونز في كنعان وتل جزر والأردن وفلسطين، ويحى ذكره في التوراة في رواية الثعبان البرونزي. ولما كانت أول صورة معروفة



(شكل ٦-١) اسقلابيوس إله الطب عند الإغريق

(لأسقلابيوس) تمثله في شكل ثعبان، وأن القرابين المخصصة له كانت تقدم إلى هذا الحيوان، فيمكن التكهن بأن الطقوس الخاصة به كانت في أول الأمر تتعلق بعبادة أحد الآلهة الجهنمية.

ولد (اسقلابيوس) - حسب الرواية التسالية - في بلدة تريكا من أعمال تساليا من إسكيس ابن الملك إيلاطوس وكوردتيس ابنة فليجياس. ويروي (هوميروس) أنه كان بشراً قد مارس مهنة الطب خلال حرب (طروادة)، أي في القرن العاشر ق.م، وأنه عرف عن (شيون) سر الأعشاب المستخدمة في العلاج وأن الإله (زوس) قتله لإرضاء (بلوتو) إله الجحيم والموت، الذي حنق عليه لإبرائه كثيرين من المرضى ولإعادة بعض الموتى إلى الحياة.

على أن قصة (أسقلابيوس) قد تطورت ونمت وترعرعت بعد وفاته على مر الزمن، إذ روى الشاعر (فنداروس) (في القرن الثاني الميلادي) أنه (أسقلابيوس) رفع بعد وفاته إلى جبل أوليمبوس مقر الآلهة، وأنه عاد بعد ذلك إلى الأرض بطلا بين الأدميين فأقام سلالة الأطباء بتأسيسه أسرة (الأسقليباد) التي انتمى إليها (أبقراط وجالينوس)، وقد لقبه أدباء الإغريق بالطبيب الشافى المنجد *iatros orthos*، كما أن الفنانيين خلدوا ذكراه بما أقاموا له من أبداع التماثيل: وهو يظهر عادة مصطحباً ثعباناً أو كلباً أو ماعزاً أو حمامة أو ممسكاً بكتاب أو بعضاً أو بإناء للأدوية أو بأومفالن *omphalon*، وهو صورة حجرية لسرة الإنسان. وقد يظهر كذلك وفي رفقة شاب اسمه (تلسفوروس) عزيت إليه فيما بعد قوى علاجية.

وقد نشأت عبادته في تساليا، وسرعان ما انتشرت وتركزت في البلوبونيز بجنوب اليونان، ولا سيما في بلدة تيتانوس حيث كانت تعيش الشعبان التسالية، وحيث بنى إسكندر، بن مكاون *Machaon* أو ابن (أسقلابيوس)، أول معبد له. وكان يروي عنه هناك أنه ابن الإله (أبولو) والآلهة (أرسينوي). وفي المنطقة نفسها على شاطئ البلوبونيز الجنوي شيد معبد (أبيدورس) الذي ظل مركز عبادته إلى أن انتشرت هذه العبادة فعمت بقية حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد دخلت أثينا سنة ٤٢٩ ق.م. وكان الكهنة يرسلون عدداً من الشعبان المقدسة إلى كل معبد جديد يقام لهذا الإله. وفي سنة ٢٣٩

ق.م. انتشر وباء الطاعون في روما، فأوفدت هذه المدينة إلى معبد (أبيدورس) رسلاً يطالبون بعبان مقدس، وبينما كان وفد روما يستقبل بحفاوة في المعبد ظهر أحد الثعابين واتجه نحو الميناء وأوى إلى سفينتهم وتسلل إلى مقصورة رئيسهم أوجولينوس، فعد الرومان ذلك فالأ حسناً، وعند عودة السفينة إلى روما عندما دخلت نهر التير، عام الثعبان في اتجاه إحدى جزره فأقيم معبد (لأسقلابيوس) فيها، فانتفى الوباء، وصار (أسقلابيوس) عند الرومان منذ ذلك الوقت إله الصحة.

وفي عهد المسيحية أطلق على هذه الجزيرة اسم القديس (بارتولومئوس St. Bartholomeus)، وأطلق الاسم نفسه على مستشفى في لندن ما يزال يحتفظ بشهرته حتى الآن.

ولم يكن محل إقامة تلك المعابد ليختار جزافاً، وإنما كانت هناك اعتبارات تراعى في هذا الاختيار، فكانت تبني في أماكن تتميز بجمال الطبيعة، واعتدال المناخ، وكان يراعى قرب وجود مياه معدنية ذوات فوائد علاجية. وكثيراً ما كانت تبني على شاطئ البحر مثل (أبيدورس) إلا أن هذه المعابد كانت جميعها آيات رائعات من الفن المعماري، وكانت تزين بأجمل التحف لأشهر الفنانين، مثل تمثال (أسقلابيوس) المصنوع من العاج والذهب الذي كان يفخر به معبد (أبيدورس). وما كانت تقام هذه المعابد حتى سرعان ما تنشأ حولها المسارح، والأندية الرياضية، وميادين السباق، لتكتمل علاج المرضى بالترفيه عنهم، مثل ما نراه الآن في مرافق فيشي وكارلزباد وغيرها من المناجع العلاجية.

وكان لمسرح (أبيدورس) الموجود إلى الآن شهرة خاصة: فقد أعد لاستقبال عشرة الآف متفرج، وكانت خواصه الصوتية من العجائب التي وفقت إلى خلقها

### عبقرية الإنشاء:

على أنه لم يكن يكفي للشخص أن يكون مريضاً ليبلح له دخول المعبد، وإنما كان يخضع لبرنامج معين يتحم عليه تنفيذه بدقة متناهية، وصبر قد يطول في أثناء فترة تمهيدية. فقد كان يحظر على المريض تعاطي أى نوع من الخمر، وأكل بعض اللحوم، وكان يفرض عليه تناول الشرب لتطهر أمعاؤه، وهذا فضلاً عن الفصد وشتى أنواع

التنظيف والتطهير. فإن اجتاز المريض هذه الخطوات من برنامج العلاج التمهيدى بأمانة، بدأت مرحلة أخرى تفرض عليه خلالها سلسلة طويلة من الحمامات.. وبعد هذا كله كان عليه أن يشارك في حفلات دينية معينة تردد فيها ترتيلات مليئة بوسائل الإيجاء وروايات تذكر قصص شفاء من سبق من المرضى.. فإن انتهت هذه المراحل، ورأى الكهنة أن المريض قد أصبح مهيباً تهيئة كافية، وأنه صار كفتاً وخليقاً بأن يشاهد الإله، سمحوا له بدخول كهف المعبد Abaton يمشى ليلة تحت قدمى تمثال (أسقلابيوس) آملاً في أن يحظى برؤيته في منامه... وكانت الرؤيا تتحقق على شكل حلم شاف.

وتفيد الكتابات المخطوطة على القرابين، والمؤلفات المعاصرة، أن الكهنة - في بداية عهد هذه المعابد - كانوا يتدخلون في العلاج ولو بطريقة خفية: فقد كانوا يتسللون إلى الكهف ليلاً مقنعين متخفين في شكل الإله، وحاملين الدهانات والمراهم والعقاقير المختلفة التي يستخدمونها في شتى أنواع العلاج... إلا أنهم أخذوا بعد ذلك يقتصرون على وسائل الإيجاء في أثناء النوم، وتفسير الأحلام تفسيراً يرمى إلى بث الأمل في نفس المريض، وإلى حضه على بذل العطاء للمعبد. ولقد صار تقليدًا في ذلك الوقت أن يقذف المريض - الذى منح الشفاء - بقطع من النقود في النبع المقدس، وأن يقدم قرباناً له من الذهب أو الفضة على شكل العضو الذى شفى في جسمه، وهذه القرابين الرمزية وجدت آلاف منها في معابد (كورينتوس، وأبيدورس) وغيرهما، الأمر الذى أمكن الاستدلال منه على أنواع الأمراض التى كانت متفشية في ذلك الوقت وهذا التقليد ماتزال بقاياها قائمة حتى الآن: فإننا نجد جدران الكنائس مغطاة بالتماذج الفضية المقدمة إلى القديس الشافى. كما أن عادة رمى النقود قد خلدت أو بعثت في نافورة بروما وفي أغنية إيطالية Three coins in a fountain ورواية سينائية اشتهرتا أخيراً.

ومع أن هذه العمليات المعقدة كانت تعتمد - ضمن ماتعمد عليه - على قسط ضئيل من العلاج الطبى الصحيح، فإن جوهر علاج المعابد كان إحداث الحلم أو النوم الشافى اللذين يكفلان شفاء المريض. وذلك أمر يبدل على أن الكهنة قد فطنوا إلى حقيقة هامة، هى قابلية النفس للإيجاء في أثناء النوم. سمحوا لى يستغلها فى النفس في بعض وسائلهم العلاجية اليوم.

وبالإضافة إلى القرابين التي كان البارثون من المرض يقدمونها إلى الآلهة رمزًا لتسبيحهم بمحمدها... فقد كشف عن عدد من نصب الحجر سجلت عليها روايات عن شفاء مرضى عديدين... والمرجح أنها كانت توضع على مرأى من الزائرين للتشجيع (والتخويف في آن واحد)، فإن إحدى هذه الروايات مثلاً تقص أن «هرمو كان قد شفى من العمى، ولكن الإله رد إليه المرض عقاباً له على رفضه دفع أتعاب المعبد». وفي رواية أخرى تهدف من غير شك إلى التهكم على معبد منافس «أن أريستاغورس ذهبت إلى معبد ترويكسنس للتخلص من دودة في أمعائها، ولكن الإله كان متغيباً فعمد أولاده - في علاجهم للمريضة - إلى قطع رأسها هي، ولم يستطيعوا بعد ذلك إعادته إلى مكانه.. وفي الصباح عندما وجد الكهنة هذه الحال دعوا الإله (اسقلابيوس) ذاته إلى المجيء.. فحضر من (أبيدورس) إلى ترويكسنس في أثناء الليل.. وإذا بالمريضة ترى في منامها أنه وصل رأسها وفتح بطنها فاستأصل الدودة منها، ثم أغلقها...

على أن شعوذة الكهنة لم تصادف قبولاً عاماً، فالواقع أنها كانت موضوعاً للنقد المر، لا سيما عند الأثينيين الذين شهروا بروحهم التهكية اللاذعة، وبنزعتهم الأصلية في التحليل والنقد.. وهؤلاء الأثينيون كانوا يسخرون من الكهنة علناً، ويصفقون في إعجاب وتحمس للكتاب الهزليين أمثال (أريستوفانس) الذي فضحهم، وندد بالأعيابهم، وصيرهم أضحوكة بين الناس، وهذا في «بلوتوس» التي مثلت على المسرح سنة ٣٨٨ ق.م... ومع ذلك فقد ظلت عبادة (أسقلابيوس) قائمة بعد عهدها الذهبي الذي قارن الترن الخامس ق.م. حتى القرن الخامس الميلادي، حيث امتزجت بطقوس مسيحية مثل تكريم القديسين بشكل يدعو إلى الغرابة والتأمل.

### الطب العلمي قبل أبقراط:

وفي هذا الجوف، لم ينظر الطب إلى الصحة العامة والمرض والعلاج عامة على أنها موضوعات تخضع لدراستها للبحث التجريبي والتفكير المنطقي إلا عندما حاول الإغريق - أول مرة في التاريخ - تفسير الكون، والاستدلال على قوانينه، بالتفكير المجرد والمنطق المقتن، مبتدعين لهذا أساليب المنطق أداة لهذا التفسير. ولقد نهجوا هذا المنهج لأيمانهم بقابلية الكون للتفسير العقلي، وبسببية الأحداث الطبيعية.. فنظروا إلى تأملات الفلاسفة

والى ملاحظة الظواهر الطبيعية على أنها موضوع لدراسة واحدة متكاملة، ولذا فإن ما نسميه اليوم بالعلوم الطبيعية إن هو إلا آخر مرحلة من مراحل تطور تناول إجراء الاستقراءات الكونية، المبينة على العقيدة بأن المادة تخضع لقوانين طبيعية أزلية، يمكن استنباطها من المميزات الهندسية والميكانيكية لأركان المادة أو ذراتها.

وإذا استثنينا قدماء المصريين نقلة ما وصلنا عنهم، وللسرية التي كانوا يحيطون بها علومهم، فإن المتقدمين الذين سبقوا الإغريق كانوا يهدفون من تصنيف ملاحظاتهم عن الكون وكشوفهم في الرياضة إلى تطبيقها على مقتضيات حياتهم اليومية تطبيقاً عملياً مباشراً. ولم يدر في خلداهم أن يتدرجوا في هذا السبيل، بأن يرقوا إلى درجة يبحثون فيها عن العلل الأولى، ويبيون هذه العلل تبويهاً منطقياً يجعل من الكون وحدة متماسكة متناسقة. فكان هؤلاء القدامى يبحثون عن قواعد تطبيقية في الحياة في حين كان الإغريق يسبرون غور الكون ويحاولون أن ينفذوا إلى أسراره.

وهناك ظاهرة أخرى اتسم بها هذا الشعب الإغريق الخليق بالإعجاب، وهى أن التعليم الذى كان في بداية عهده سريعاً، شأنه في ذلك شأنه في سائر الحضارات التي عاصرتة.. سرعان ما حطم قيوده، وتخطى الحدود التي كانت موضوعة له... وإذا (بالطائفة) تحول إلى «مدرسة»... وإذا بالمطلعين والمريدين يتحولون إلى طلبة. وفلاسفة أئنا يتجادلون أو «يتفلسفون» في كل المناسبات كالحفلات والولائم.. حتى أننا نرى أفلاطون يطلق اسم «المأدبة» على أهم إنتاج فلسفي له... وفئة من الفلاسفة تسمى بالمثائين peripaterticians<sup>(١٣٧)</sup> نسبة للطريق peripato التي كانت تحيط (البارثون) في قلب أئنا، والتي كانوا يتمشون فيها وهم مسترسلون في جدلهم.

إلا أن هذه النزعة العقلية المجردة لم تكن وليدة أئنا نفسها، وإنما جاءت ثمرة جهود فلاسفة مستعمرات الإغريق في جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه. وإذا كنا سنشير إلى هؤلاء الفلاسفة وإلى فلسفاتهم فلأن نظرياتهم أثرت، ليس في الجزء النظري البحت من الطب فحسب، وإنما في جميع نواحيه وبخاصة فيما يتعلق منها بالعلاج... ذلك لأن الفلسفة كانت - كما قلنا - جزءاً لا يتجزأ من العلم التجريبي وأنه لم تحدث أية محاولة لفصلها عنه.

وقد عزا (هكسلي Huxley) النشاط الذهني الذي ساد العالم في ذلك الوقت إلى خيرة عقلية عم فعلها في المنطقة الواقعة بين بحر أيجة وشمال الهندوستان... وقد أيد هذا الزعم جونانان رايت Jonathan Wright، بملاحظته أن (زرادشت) في إيران، و(كونفوشيوس) في الصين، و (بوذا) في الهند، و (طاليس) في أيونيا، و (فيثاغورس) في صقلية، نشطوا جميعًا في وقت واحد على وجه التقريب، وفي مناطق تقع على خط عرض واحد هو خط ٣٥ شمالًا وهو الذي يمر بآسيا الصغرى وجنوب إيطاليا وصقلية.

### المدارس الفلسفية :

وقد شاهد هذا العصر نشأة المدارس الفلسفية، وأولها هي مدرسة (طاليس) في ملطية (سنة ٦٣٩-٥٤٤ ق.م.) و (طاليس) وهو الرياضي الذي تمكن من قياس ارتفاع الهرم، بتطبيق قانون المثلثات المتشابهة على قياسين هما قياس ظل الهرم وقياس ظل عصا ثبتها عموديًا. وآراء (طاليس) العلمية لا تهمنا بقدر ماتعينا الأساليب العقلية التي توصل بها إلى استنتاجاته.

وقد كان المفكرون في ذلك الوقت يبحثون عن علة هذا الكون، محاولين تفسير جوهره بأنه عنصر أولى واحد تكوّن منه الكائنات، ولعل أعمق مفكرى هذه الحقبة التي غرست في أثناءها بذور فكر الإنسان الحالي هما: (فيثاغورس، وأنبادقليس)، للطابع الدائم الذي تركاه في الفكر البشري، وقد نسجت حولها الأقاصيص ووضعها مؤرخو العرب في مصاف أكبر الحكماء، بل كادوا يجلوهما على الأنبياء، فلإننا نجد ابن أبي أصيبعة يقول: «قال القاضي الصاعد أن (بندفليس) كان في زمن (داود) النبي عليه السلام على ما ذكره العلماء بتاريخ الأمم، وكان أخذ الحكمة من (لقمان الحكيم) بالشام.. وأن (فيثاغورس) أخذ الحكمة عن (سليمان بن داود) عليها السلام، وكان قد أخذ الهندسة قبلهم من المصريين، وله في نضد العالم وترتيبه على خواص العد ومراتبه رموز عجيبة وأغراض بعيدة» ويصدد زيارته لمصر قال: «واشتاق (فيثاغورس) إلى الاجتماع بالكهنة الذين بمصر فابتهل إلى (فولوقراطيس) أن يكون له على ذلك معينًا فكتب له إلى أماسيس ملك مصر كتابًا يخبره بما تاق إليه (فيثاغورس) ويعلمه أنه صديق من أصدقائه، ويسأله أن يجود عليه بالذي طلب وأن يتحسن عليه. فأحسن أماسيس قبوله

وكتب إلى رؤساء الكهنة بما أراد، فورد على أهل مدينة الشمس وهى المعروفة بزماننا بعين شمس بكتب ملكهم، فقبلوه قبولاً كريماً وأخذوا فى امتحانه زماناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً فوجهوا به إلى كهنة منف، كى يبالغوا فى امتحانه فقبلوه قبولاً على كراهية، واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيباً ولا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسبولس يمتحنوه فلم يجدوا عليه طريقاً، ولا إلى ادحاضه سبيلاً لعناية ملكهم ففرضوا عليه فرائض صعبة مخالفة لفرائض اليونانيين كما يمتنع عن قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبه، فقبل ذلك وقام به فاشتد إعجابهم منه وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره أساسيس فاعطاه سلطاناً على الضحايا للرب تعالى وعلى سائر قرابينهم ولم يعط ذلك لغريب قط. . . ١٠٠

و (فيثاغورس)، صاحب نظرية مربع وتر الزاوية القائمة، كان أبوى الأصل، عاش فى كروتون بجنوب إيطاليا (من ٥٨٠ - إلى ٥٠٠). وقد تخيل الكون خاضعاً لقوانين الأرقام. وكان تلاميذه يقدسون بعضها مثل رقم أربعة الذى كانوا يسمونه «الرقم الكامل» لخواصه العجيبة.. ومع أن مدرسة (فيثاغورس) انحلت بعد موته لأسباب سياسية، فإنها ظلت بعد ذلك قرنين على شكل طائفة فلسفية ودينية، وأثرت على الفكر الفلسفى بعدها، إلى حد أننا نجد (أبقراط) ذاته يجدد أياماً حاسمة بالنسبة للأمراض لمقابلتها بعض الأرقام التى نسبت لها خواص مزعومة.

ولعل تفكير (فيثاغورس) المبني على خواص الأرقام والنسب العددية وعلم الألحان هو أساس نظريات (أنا دقليس) وتلاميذه. فبينما كان أمثال (طاليس، وأيراقليطوس، وأناكسمين) يعتقدون أن أصل هذا الكون جوهر واحد هو فى النظريات المختلفة الأرض أو الهواء أو النار أو الماء. كانت نواة تعليم (أنا دقليس) فى صقلية أن الكون مبنى من أركان أربعة، كل ركن غير قابل للقسمه، وأن جميع الأجسام نشأت عن امتزاج أو تجمع تلك العناصر الأولى بأشكال مختلفة، ونسب متفاوتة، وأن هذا الامتزاج أو التجمع يخضع لقانون الجاذبية والنفور. وهاتان النظريتان، نظرية العناصر الأولى التى لا يمكن تقسيمها ونظرية التجاذب أو النفور فيها أصول الكيمياء الحديثة، كما نجد أن تحديد عدد الأركان بأربعة يعتمد على قداسة هذا الرقم عند (الفياغورين). وهو كذلك أساس تقسيم الأخلاط إلى أربعة، ذلك التقسيم الذى ساد الفكر الطبى حتى العهد الحديث.

وقد روى عن (أبداقليس) أيضاً أنه كافح الحميات التي كانت منتشرة في مدينة سلينتم Selinentum بتجفيف المستنقعات المحيطة بها، وقضى على الأوبئة في أجريجنتم Agrigentum مسقط رأسه بتبخير عام.

وفي الزمن ذاته عاش في مدينة كروتون (القمايون Alcmaeon) الذي سمي بأبي الطب قبل (الأبقراطي)... وكان مذهبه أن الصحة إن هي إلا حالة الانسجام التام بين عناصر الجسم المختلفة، وأن المرض يحدث عندما يتسلط عنصر على العناصر الأخرى، وأن الشفاء هو الانتقال مرة أخرى من حالة الاضطراب إلى حالة الانسجام. (وهذه النظرية هي التي تبناها بعد ذلك (أبقراط) واعتمد عليها في وضع نظرية الأخلاط).

وقد فطن (القمايون) إلى تأثير المناخ والتغذية والبيئة والأمزجة، وإلى صلتها بالأمراض، وقد أشار تلاميذه في كتاباتهم إلى الأخلاط الأربعة، وشبه بعضهم الجسم السليم بالقيثار ذى الأوتار المشدودة شداً متساوياً، فإذا ارتخى أحد هذه الأوتار أو اشتد، زال الانسجام وماتت الروح قبل موت الجسد.

ولقد عمد (القمايون) إلى تشریح الحيوانات، ووفق في الكشف عن عصب البصر وأنابيب استاخيو Eustachian، واستطاع التمييز بين الأوردة والشرايين، وفسر النوم والموت بأنها ينجمان عن المحسار الدم من المخ، وقال بأن المخ هو مركز الذهن والحواس، الذي ينشأ عنه التفكير والتمييز.

ولقد تبعه في هذه الآراء (أفلاطون، وأبقراط) في حين خالفه (أرسطو، وزينون) زعيم الرواقيين<sup>(١٣٨)</sup> اللذان نسبا هذه الخواص إلى القلب لا إلى المخ. ولذا فإذا كان الفضل يرجع إلى (فيثاغورس) في وضع أسس نظريات (أبقراط)، لا سيما فيما يخص عدد الأخلاط وأرقام الأيام البحرانية ونظرية الانسجام.. إلخ، فإن فضل (القمايون) أكبر حيث إنه نبه من جهة إلى ضرورة الالتجاء إلى التجربة العملية للتحقيق من صحة الافتراضات التكهنية ومن جهة أخرى، إلى وجوب اقتران البحث الطبي بالتفكير الفلسفي.

وأهم المؤلفات التي خلفها (القمايون) هو كتاب «في طبيعة الإنسان» (On nature) الذي ظل مدة طويلة المرجع الأساسي للطب قبل (الأبقراطي) وأثر تأثيراً عميقاً في طب

(أبقراط) نفسه، ويمكن اعتباره النواة التي أنجبت طب (قو). إلا أن ما وصلنا منه لا يتعدى نبذاً ضئيلة وردت في كتابات بعض المعقبين عليه أمثال (أفلاطون) في مؤلفه «فيدون». ومع ذلك فإن دي رينزي Di Rienzi، يذهب إلى أن بعض أجزاء المجموعة (الابقرافية) قد اقتبست اقتباساً من كتابات (القهايون)، كما أنه يعتبر كتاب الطب القديم، وكتاب المرض المقدس، اللذين ينسبان عادة إلى (أبقراط) من إنتاج أطباء مدرسة كروتون... ويوافق في ذلك عدد من المؤرخين المعاصرين الذين ينسبون إلى هذه المدرسة أهمية تزداد يوماً بعد يوم.

ومن أشهر الأطباء الذين عرفوا قبل (أبقراط) (أنكساغورس Anaxagoras) الذي عاش في أثينا وهو أيضاً إيونى الأصل. وقد أشتهر فيها - وهو ما يزال شائباً - بأرائه الثورية التي أثرت أعمق التأثير في الفكر الإنساني وفي نظرة الإنسان إلى الكون، فهو الذى قال إن الشمس ما هى إلا حجر منصهر وهاج... وإن عدد العناصر الأولية في الكون لا يحصى لأنها من الصغر والدقة بحيث لا تؤثر في الحس إلا إذا تجمع عدد كبير منها.. وإن عملية الخلق لم تكن سوى تجميع عناصر كثيرة كانت موجودة ولكنها غير مرئية، شأنها شأن تلك التي توجد في الغذاء قبل أن تدخل في تكوين الجسم بتجمعها فيه - وزعم (أنكساغورس) كذلك أن الخالق ما هو إلا مبدأ موجه سماه (النوس nous)، أو العقل الكوني، وهو يقابل نظرية الجاذبية والتنافر، في آراء (أنبادقليس).

وقد حظى (أنكساغورس) في أثينا بمنزلة عظيمة، وتمتع فيها بنفوذ كبير، وكان طبيباً ناجحاً وإن كانت فلسفته هدامة، وقد روى (بلوتارخ) أنه تولى علاج (بريكليس) علاجاً نفسياً كان له الفضل في استقرار ذهنه، وفي تعليمه كيف يطبق قضايا المنطق على الطبيعة، وفي تحرره من الخزعبلات العقيمة، وفي اعتناقه ديناً كله سماحة وسلم وأمل.

\* \* \*

يمكن اختصار النظريات التي راجت في العالم الإغريقي في هذا العصر على النحو

الآتى :

كان الركن الأوحده الماء في نظرية (طاليس)، والنار في رأى (هيراقليط)، والهواء في

فلسفة (أنا كسيمين، وديوجين الأبولوني). أما (بارمنيد) فقد فرض ركنين هما النار والأرض ، وفرض (أنبادقليس) أربعة كما أسلفنا.

وأضاف (أنبادقليس) أن الروح إنما هي من الدم وأن الإحساس والحركة والفكر إنما هي عمليات مادية تشابه الهضم والتنفس.

وقد اجمعوا على أن الإحساس يتم بتصاعد أبخرة من الشيء المحسوس، تحتفظ بشكله، وأن هذه الأبخرة تصل إلى أعضاء الحس ومنها إلى مراكزه. وبعدئذ اختلفوا. قال البعض إن الإحساس يتم بلامسة الأبخرة لجزئيات مطابقة لها، على حين قال البعض الآخر، أمثال (أنكساغورس) ، إن الإحساس إنما يتم بلامسة النقيض، مستندين إلى أن الجلد لا يحس بسخونة شيء إلا إذا كان هو باردًا.

أما (ديموقريط)، وكانت نظرياته بعيدة الشأو، فقد تأمل في المادة وتوصل إلى فكرة الذرة، أي أنه ليس ثمة شيء في الكون سوى ذرات وفضاء - وأن الأجسام مع اختلافها، مكونة كلها من ذرات متجانسة لا تختلف إلا بالعدد والحجم، وأن الذرات دائمة الحركة فإذا انفصلت تحللت المادة وإذا عاد اتصالها عادت المادة إلى قوامها.

وتبعًا لهذه النظرية فإن الجسم الحيوان مكون من ذرات تفصل بينها مسام تشكل صورة سلبية لها، وهذه الشبكة الجوفاء متصلة بالعالم الخارجي عن طريق النفس وأعضاء الحس، فتدخل عن طريقها ذرات حيوية تورد للجسم الحرارة والحيوية والأحاسيس. ثم أكد (ديموقريط) أن الإحساس إنما هو عملية ذهنية، فاللون والحلاوة والمرارة والحرارة والبرودة إنما هي من خلق الذهن الحاس.

وأوضح (أنبادقليس) أن الأجسام كلها - حتى الجامدة منها - تتصف بطبيعة أو مزاج ناتج عن نسبة الأركان الأربعة فيها، وأن الحس يتم بالمطابقة، أي أن الماء يدرك الماء، والهواء يدرك الهواء، وهكذا. وقد ظل العلماء يؤمنون بمزاج الأجسام ويصفون الأدوية تبعًا لمزاجها وطبائعها حتى عصر النهضة.

أما (أنكساغورس) فقد فصل بين الذهن والمادة فصلًا تامًا، وفرض وجود ذرات مختلفة الأجناس، لا يمكن حصر أنواعها، فقال إن العظم مكون من جزئيات عظم، والعضل من جزئيات عضل، إلخ، غير أن جوهرًا عاليًا يتحكم فيها كلها هو «النوس»

أو العقل الكونى الذى يتسلل كل الأجسام والأجرام، على الأرض أو فى السماء، ويتحكم فيها.

وديوجين، الذى نظر إلى الهواء على أنه ركن المادة الأساسى، أولاه كذلك الأولية فى الحس قائلاً إن المخ مركز الحس حقاً ولكنه لا يحس بذاته وإنما بالهواء الذى يحويه فى تجايفه وتجاويف الأنف والأذن.

ونرى من كل هذه الأمثلة أن الهواء أعبر فى الطب الإغريق دوراً أساسياً، فقد عده البعض ركنًا من أركان المادة، والبعض الآخر حاملاً للحياة والنفس والأحاسيس، وناقلاً للصفات الأساسية، وهى اليبس والرطوبة والبرودة والحرارة.

## أبقراط

مهد الفلاسفة والعلماء الذين أسلفنا ذكرهم السبيل (لأبقراط، وسقراط، وأرسطو) وأمثالهم، ولكنهم لم يعدوا قط الإنسان أكثر من حدث عارض فى الكون خاضع لقوانينه، ولم يحلوه موضعه الحقيقى من الطبيعة، قريباً من الأرض، متأثراً بقوانينها، مستجيباً لمقتضياتها، ومع ذلك متحرراً منها وقادراً على تهيئة حياة سليمة سعيدة لنفسه، بفضل قواه الذهنية والحيوية.

ولقد وفق من لحق بهم فيما أخفقوا فيه. وشيدوا الحضارة الأثينية، التى ازدهرت وترعرعت فى العصر الذى أطلق عليه «عهد الإنسانية الذهبى»، على أسس إنسانية راسخة. وكان الرائد الأول للطب فى هذا الانفجار العلمى هو (أبقراط).

وترجع أول ترجمة (لأبقراط) إلى الطبيب (سورانس) الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى. غير أن نظرة النقد الحديث إلى (أبقراط) ومؤلفاته، قد تغيرت تغيراً محسوساً منذ أن بدأ العلماء يطبقون قواعد نقد النصوص، فقد أوضحت دراساتهم أن المعلومات التاريخية الموثوق بها عن شخصية (أبقراط) تكاد تكون معدومة وأن هذا الطبيب الذى كاد يكون أسطورياً لم يؤلف إلا قلة مما نسب إليه.

ولد (أبقراط) - تبعاً لسورانس - سنة ٤٩٠ ق.م. فى جزيرة قو، وكان يتسمى إلى

أسرة طيبة عريقة، أسرة الأسقليبياد، التي تكونت من ذرية (أسقليبيوس) الطبيب الذى ورد ذكره فى منظومات (هوميروس)، والذى أله بعد ذلك وقيل إنه ابن (الإله أبولو). ودرس (أبقراط) العلوم الطبية فى معبد أسقليبيوس بقو، ثم زار مصر وجميع مدن اليونان وبلادًا غيرها. ولم تمنعه الأسفار من ممارسة الطب فى مسقط رأسه.

وقد عرف (أبقراط) كل فلاسفة عصره، ونشأت علائق الصداقة بينه وبين الكثيرين منهم أمثال (ديموقريط) صاحب النظرية الذرية، و(جرجياس) أبى البلاغة، و(هروديكوس) إخصائى الجمباز، ومع أن اسمه لم يذكر فى كتابات معاصريه أمثال (أفلاطون) إلا مرات معدودة، فقد ذاع صيته فى حياته، وكتبه ملوك الأرض وحاولوا استدراجه إلى بلادهم بالذهب دون جدوى، ونسجت القصص حول اسمه بعد مماته وأصبح اسمه «بقراط» على لسان العامة مرادفًا لقمة العلم والحكمة، حتى أنه يحكى إلى الآن أن النحل الذى يعيش حول قبره يفرز عسلًا شافيًا للأمراض. وبما رواه المؤرخون المعقبون عليه ليدلوا على فضله، قال سليمان بن حسان إن (أفليمون) صاحب القراسة كان يزعم أنه يستدل بتركيب الإنسان على أخلاقه، فأراد بعض تلاميذ (أبقراط) امتحان (أفليمون) هذا فصوروا صورة (أبقراط) ونهضوا بها إلى (أفليمون) ليحكم بها على أخلاقه، فنظر إليها وقال: رجل يجب الزنا، فقالوا له كذبت، إن هذه صورة (أبقراط) الحكيم، فقال لهم لابد لعلمى أن يصدق فأسألوه، فرجعوا إلى (أبقراط) وأخبروه بالخبر، وبما قال لهم (أفليمون)، فقال (أبقراط) صدق (أفليمون) أحب الزنا ولكنى أملك نفسى، وقد نسبت هذه الحكاية أيضًا إلى (سقراط) وتلاميذته.

وروى حنين بن اسحق فى كتاب نواذر الفلاسفة والحكماء أنه كان متقوشا على فص خاتم (أبقراط) «المريض الذى يشتهى أرجى عندى من الصحيح الذى لا يشتهى شيئًا».

توفى (أبقراط) بعد حياته الحافلة فى لاريسا من أعمال تساليا سنة ٣٧٧ ق.م. وروى ابن أبى أصيبعة أنه مات بالفالج وأوصى أن يدفن معه درج من عاج لا يعلم ما فيه، «فإنها اجتاز قيصر الملك بقبره رآه قبرًا ذليلًا فأمر بتجديده لأنه كان من عادة الملوك أن يتفقدوا أحوال الحكماء فى حياتهم وبعد وفاتهم، فلما حضره لينظر إليه استخرج الدرج فوجد فيه الخمس والعشرين قضية فى الموت التى لا يعلم العلة فيها لأنه حكم فيها بالموت إلى أوقات معينة وأيام معلومة، ويقال إن (جالينوس) فرسها وهذا مما استبعده،

وإلا فلو كان ذلك حقًا ووجد تفسير (جالينوس)، لنقل إلى العربية، كما قد فعل ذلك بغيره من كتب (أبقراط) التي فسرهما (جالينوس)، فإنها نقلت بأسرها إلى العربية».

أما قو، التي نشأت فيها أشهر مدرسة طب في العالم القديم، والتي أنجبت سلسلة من العلماء على رأسهم (أبقراط)، فإنها جزيرة صغيرة، مساحتها مائة ميل مربع، تقع في بحر إيجه بالقرب من الركن الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى. وقد عمر هذه الجزيرة شعب دورى تزح إليها من (إبيدورس) في البلوبونيز حيث كان يعبد (أسقليبيوس)، وقد شيد هذا الشعب وسط المياه المعدنية التي تزخر بها ضواحي عاصمتها معبدًا لهذا الإله أصبح مرادًا للمرضى. وإلى اليوم يشار إلى شجرة دلب، تبلغ دائرتها ثلاثين مترًا، وتسمى غصونها الكهلهة على أعمدة من الخشب في قلب سوق المدينة، ويقال إن (أبقراط) كان يأوى إلى ظلها لعيادة مرضاه، وقد كشفت الحفائر في ضواحي العاصمة عن معابد وأروقة ومداخل معمدة، يرجع أقدمها إلى القرن السادس وأحدثها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وقد هدمها زلزال سنة ٥٥٤ ميلادية.

وقد ورثنا مجموعة مؤلفات تسمى (بالمجموعة الأبقراطية Corpus hippocraticum) وترجع أقدم نسخة موجودة منها اليوم، وأقدم ترجمة لها وهي باللاتينية، إلى القرن التاسع الميلادى، وتوجد من تلك الأصول نسخ في فينا، وباريس، وفلورنسا، والفاتيكان، والبندقية، وليس من بينها واحدة كاملة. وبخصوص تاريخ تلك المجموعة فقد ظهرت بعض أجزاءها، أول الأمر، في مدينة الإسكندرية عندما نشأت بها مدرستها الشهيرة، وهذا في أول القرن الثالث ق.م. أى ما يزيد عن قرن ونصف بعد وفاة (أبقراط). وكانت وزعت قبل ذلك نسخ كثيرة في بلاد اليونان. ولم يم جمعها نهائيًا إلا في القرن الثالث ق.م. عندما أمر حاكم الإسكندرية البطلمي بضمها إلى مكتبة المدرسة، وسميت بعد ذلك بالمجموعة (الأبقراطية) وعلى مر الزمن دست عليها مؤلفات عدة مختلفة القيمة، لما كان يحيط باسم (أبقراط) من الإجلال في هذا الوقت، كما تسند اليوم كل النكات إلى جحا أو أبي النواس، واستمرت عملية الإضافة في روما حتى بعد الميلاد بقرنين، ولم يفت الأطباء الأقدمين هذا العبث، واعترض كثير منهم على تبعية عدة أجزاء منها، وألف (جالينوس) كتابا في كتب (أبقراط) الصحيحة وغير الصحيحة، وقال عن كتاب الأمراض الوافدة «إن وغيرى من المفسرين نعلم أن المقالة الرابعة والخامسة والسابعة

مدسوسة ليست من كلام (أبقراط) ، وقد وافق أحدث النقاد على هذا ونوا رأيهم على اعتبارات لغوية وموضوعية وعلى تضارب بعض الآراء التي جاءت في مختلف الأجزاء .

وهناك مدرسة أخرى ازدهرت في الوقت ذاته وناقست مدرسة قو، وانجبت الفطاحل أمثال الفلكي (أودكسوس) (٤٠٩ - ٣٥٩ ق.م.) الذي حدد أيام السنة بأنها ٣٦٥ يوماً وربع يوم، والمعماري (ستراتو) الذي شيد منارة الإسكندرية، وبعض العلماء الذين جنحوا فيما بعد إلى الإسكندرية، وقد تميزت بنظريات سبق لها شأن كبير في التفكير الطبي المصري القديم، وربما ورثتها عنه، فحواها أن اجتاز الهضم حدوده الطبيعية، ينجم عنه ظهور مواد غير طبيعية تسرى في الجسم وتسبب المرض.

### نظرية الاخلاط:

أما أساس مذهب مدرسة قو فهو مبنى على نظرية الأخلاط، وقد شيدت هذه النظرية على تأملات فلسفية مبنية على فكرة (الفيسيس Physis). وهذه الكلمة التي ترجمت بطبيعة الإنسان، واشتقت منها كلمة فسيولوجيا، ويرد ذكرها كثيراً في كتابات (أبقراط، وجالينوس) وغيرهما، تمثل ركناً أساسياً في نظرتهم الحيوية إلى علم الحياة، هو اعتبار الجسم كلا متماسكاً، والاعتقاد بأن الجسم يعمل كوحدة، وأن نشاط أجزائه المختلفة يخضع لتنسيق هذه الوحدة العليا، وأنه كلما كمل تنسيق الوحدة في العمل قرب الجسم من الكمال، وعلى العكس من ذلك، إن استقلال جزء في نشاطه يؤدي إلى المرض.

وليس من شك في أن فكرة «الفيسيس» هذه التي اثبتتها البحوث الحديثة في كيفية احتفاظ الجسم بتركيبه الداخلي، وفي استجابات المحور المكون من الجهاز العصبي ومن الغدد الصم إلى مختلف التأثيرات الخارجية، كانت فكرة فلسفية مجردة لا يمكن تحليلها، وإن كانوا رأوا فيها سر الحياة. أما عن علاقة وحدة الجسم بما يحيطه، فإن (أبقراط، وجالينوس) بعده كانا ينظران إلى الحياة على أنها تجاوب بين (الفيسيس) والمحيط، بل إنهما كانا يعتبران الجسم وبيئته وحدة متكاملة لها قطبان: أحدهما الجسم والآخر البيئة، وخاصتان:

إحداهما : خضوع الجسم للمحيط.

والأخرى : استيعابه له بأن يأخذ منه ما ينفعه ويلفظ ما لايلائمه، فإن نجحت عملية الاستيعاب أو الهضم، على حد تعبيرهم، تمت الصحة، وإلا نتج المرض، فالمرض إذن حالة فردية لهذه العملية.

وترتبط الطريقة التي تجرى بها « الفيسيس » هذه العمليات ارتباطاً وثيقاً بنظرية الاحلاط. . تلك النظرية التي عرفت، كما قلنا، زمناً طويلاً قيل (أبقراط)، وتأثرت أولاً بالنظريات (الفيشاغورية) في الأعداد وقدااسة رقم أربعة، وثانياً بنظريات (أنباد قليس) الذى حدد الأركان الأربعة إذ قال إنها: الماء، والهواء، والتراب، والنار.

وبالمثل فإن أخلاط الجسم حدد عددها بهذا الرقم عينه، وهى: الدم، والبلغم، والصفراء، والسوداء، وطبائعها أربع: السخونة، والبرودة، واليبس، والرطوبة.

ثم ربط المذهبان اللذان أتيا بعد هذا بين الركن والخلط والعضو والطبيعة والمزاج، مثلاً قيل إن الدم من القلب وسيطر على المخ وصفته السخونة، والبلغم من المخ وسلطانة الرئة وصفته البرودة، والصفراء من الكبد وسلطانها المرارة وصفتها الجفاف، والسوداء من الطحال وسلطانها المعدة وصفتها الرطوبة. ووصف طابع الإنسان بالخلط المسيطر فيه، فالدم يسيطر على السعويين، والصفراء على الصفرايين والسوداء على السوداويين، وهكذا، ثم وصف النفثيون أمزجة مختلطة تجمع بين أكثر من خلط وأكثر من طبيعة، كأن يجتمع فيها الرطوبة والسخونة أو السخونة أو الجفاف، أو البرودة والرطوبة، أو البرودة والجفاف.

وقد ذاع تقسيم الطبائع إلى أربع حتى بين غير المتطبيين، ونرى الشعراء يتناولونه في مزجهم، وأبا نواس يقول:

سألت أخى أبا عيسى	وجبريل له عقل
فقلت الراح تعجبني	فقال كثيرها قتل
فقلت له قدر لى	فقال وقوله فصل
وجدت طبائع الإنسان	أربعة هى الأصل
فأربعة لأربعة	لكل طبيعة رطل

وما جبريل أبو عيسى الذى يستشهد به أبو نواس إلا جبريل بن مجتيشوع مس مشاهير أطباء أوائل العهد الإسلامى، ومن الطريف أن هذه الأبيات تزdan بها جدران فندق من فنادق القاهرة الوجيهة، وهذا ولا شك لحت رواه على الوصول إلى هذا العدد من الأبطال.

ولقد ظل هذا المذهب أساساً للطب حتى القرن الثامن عشر، عندما عرفت الجرائم ونشأ علم البكتريولوجيا الذى أكد أن المرض ينتج عن العدوى، وما نحن اليوم نذهب مذهباً مشابهاً لنظرية الأخلاط والأمزجة، من حيث إننا لا نرجع الإصابة بالدون إلى مجرد الجرثومة ولكننا نعتزف بأهمية استعداد الأنسجة إليها.

كان المرض، إذن، فى نظرة هؤلاء الأغرقي، ينبع من الجسم ذاته ومن مزاجه الموروث. ولكن (الأبقرطين) اعتقدوا، بالإضافة، أن عدم التوازن قد يحدث أيضاً إذا ما سيطر أحد العناصر الأربعة على الأخرى، فيغلب الخلط المقابل له على الأخلاط الأخرى، أما عناصر البيئة فإنها كانت تشمل الهواء والماء والطقام وما يقابلها من رطوبة أو ييس أو حرارة، ومن أخلاط مختلفة. وساد الاعتقاد بأن حال الإنسان، مرضية كانت أم صحية، تتفق ومناخ خاص، وأن الأمراض الموسمية تتبع طبيعة هذا الموسم أو ذاك، فسمى (أبقرط) سنة من السنين طاعونية، وأخرى درنية.. وهكذا.

وأخر عامل مرضى، بعد كل من المزاج والبيئة، كان فى نظر (أبقرط) ما ينتجه نشاط الإنسان وعاداته.

تخييل (أبقرط) المرض، إذن، على أنه مثال من ظاهرة طبيعية فى الجسم، لا تختلف عن عمليات الصحة إلا بالشدة، لأنها إحدى عمليات الهضم التى سبق وذكرناها، التى يتبعها التخلص من فضلات الأكل أو زوائد الأخلاط. ثم زعم أن عملية التخلص هذه - وهى عملية الشفاء - تم بالنسبة للأمراض الحادة فى أيام معينة هى أيام البحران critical days، عن طريق الإفرازات الطبيعية، أى العرق، والبول، والإسهال، والنفز، والقريح. أما انتهاء الأمراض المزمنة فإنه. أقل تحديداً ويتم لابالبحران وإنما بالتحلل Iysis، كما سميت قوى الجسم الشافية Vis medicatrix naturae أى وسائل الطبيعة الشافية.

وبذلك قسم مجرى المرض إلى أطوار ثلاثة، هي الطور الخام، فطور النضج فطور الأزمة أو البحران، وهي التي أطلق عليها العرب؛ الابتداء والتزايد والانتهاه والامحطاط.

وأضاف (جالينوس) فيما بعد إضافة كان لها شأن كبير في النظريات والعلاج من بعده، إذ حدد لكل خلط منفذاً خاصاً: الأنف والفم والحيض للدم، والأنف للبلغم، وكيس الصفراء للصفراء، والطحال والمعدة للسوداء.

وكانت النتيجة المنطقية للإيمان بقوى الجسم الشافية أن الجسم يستطيع حل مشاكله بنفسه، حتى إذا تحم عليه تحمل المرض في أثناء هذه العملية. يترتب على ذلك أن أنجح وسيلة للعلاج هي ترك الجسم يستعيد صحته تلقائياً. وهذا المبدأ نجد مثله في (لقافة إدوين سميث) حين تقرأ هذه العبارة: «دعه مربوطاً في مرساه...».

ومن هنا يجدر - إن تعذر الشفاء - تغيير الظروف التي حدث فيها المرض، وذلك بأن ينقل المريض إلى بيئة صالحة، وأن يقدم إليه طعام صحى.. ولقد قال (أفلاطون) في هذا المعنى في مؤلفه المسمى (طيمائوس Timeus, 90): «هناك علاج واحد لجميع الأمراض، وهو تزويد المريض بغذاء مناسب ووظائف ملائمة».

وكذلك فقد فسرت التربية في هذا العصر بأنها إمداد الشخص ببيئة صالحة وسميت هذه البيئة، بال (diata وregime) ومعناها «نظام الحياة»، وهما يكونان أساس العلاج (الأبقراطى)، ونظام الحياة هذا كان يعتمد إلى حد كبير على الرياضة التي كانت تختلف باختلاف أساليب الأساتذة وأشهرهم (هيروديكوس) الذي كان نظامه يشتمل على الغذاء ونشر الخشب والمشى التدريجى والقراءة بصوت مرتفع والغناء... الخ.

كما أنه لم يفت (الأبقراطيين) أن هناك حالات تستوجب التأثير لا في البيئة والوظيفة فحسب، ولكن في الجسم نفسه وهذا بمساعدته مباشرة، لا سيما في عملية التخلص من الفضلات ومن الأخلط الزائدة، فيعطى مثلاً ما يدر الصفراء إذا زاد هذا الخلط، ويقصد إذا زاد الدم، وهكذا، وفي هذا التجرد من العقاقير المركبة والوصفات الغريبة اختلاف كبير عما كان معهوداً في طب العصر الفرعونى.

ولنلق الآن نظرة سريعة على مؤلفات (أبقراط). يقول (ليتره Littre): إنها بلغت

اثنين وسبعين كتاباً تناول ثلاثة وخمسين موضوعاً. وسوف تظهر لنا بعض مقتطفات من هذه الكتب سعة أفقه وأسلوب تفكيره الواقعي المنطق المتسم بالطلاقة والتحرر من جميع قيود النظريات والفروض الفلسفية، كما أنها توضح نظرتة إلى المريض، التي كانت في أساسها تعنى بدراسة تاريخ المرض، وتطوره، والتكهن بمآله، ثم تبحث بعد ذلك عن كيفية العلاج اعتماد على النتائج المستخلصة من تاريخه.

### كتاب الطب القديم :

يقول هذا الكتاب إن البحث عن أصل الإنسان بطريقة (أنا دقليس) عقيم وعمديم النفع، وإن الأجدد بنا أن نبحث عن استجابة الإنسان لبيئته وطعامه وشرابه ومهنته، وأن ندرك أن حالة الجسم تختلف تبعاً لتنظيم أعضائه، وبهذا يفرق هذا المؤلف بين علم الحياة وبين بقية العلوم الحيوية. ولقد نسب المؤرخون باستثناء ليترى، هذا المؤلف إلى مدرسة (قو) عامة، لا إلى (أبقراط) نفسه، إذ إن هذه المدرسة تمثل النظرة العلمية المترنة إلى الطب، الذي رأته يختلف عن العلوم البحتة التي تبحث - على المنهج الذى سلكه (أنا دقليس) - فيما يحتويه كل من السماء والأرض، والتي تتطلب مقدمات أو معطيات تشيد عليها بناءها.

وفى كتاب الأهوية والمياه، درس (أبقراط) استجابة الجسم للمحيط الذى يعيش فيه بمعناه الإقليمي، فأوضح أن طبائع الناس تختلف باختلاف طبيعة بلادهم وميز بين شكل كل من سكان الجبال والمنخفضات والأراضى ذات المياه الراكدة والمناطق الجافة، وبين صفاتهم. وهذه الملاحظات الدقيقة كانت أساس نظرية (جالينوس) التي ربطت خواص الذهن بخواص الجسد.

ثم بحث فى تأثير المناخ على الأمراض الشائعة، وضرب أمثلة عدة مستمدة من شعوب أوروبا وآسيا. ومن هذه الأمثلة - التي ذكرت كثيراً - ما قاله عن (تخث الأسقوثيين)، الذى عزاه إلى أسباب طبيعية فى حين نسبة (هيرودوت) إلى غضب الآلهة. إلا أنه لا يصف هذه التأثيرات بالجمود الحتمى، وإنما يقول إن هذه العوامل أو تلك تجعل الإنسان يميل إلى كذا أو كذا، وهو يجعل الإنسان فى النهاية هو المتغلب دائماً على

الطبيعة بفضل قواه الكامنة.. ثم يختم بوصف المياه المعدنية وتحليل فوائدها في الحالات المختلفة.

ويتناول كتاب الأويثة أو كما سماه العرب الأمراض الوافدة أو إبيديميا، ما يسميه بمزاج كل سنة من السنوات، أى نوع المرض الذى انتشر فيها، ويتقصى أسباب هذا الانتشار وارتباطه بالجو، وكان هذا المرض أو ذاك عرض لمزاج السنة. وأهم مزاجين وصفهما هما المزاج الطاعون والمزاج الدرني، ومن مظاهر هذه الأمزجة الحمى الخبيثة، وحمى تشبه في وصفها الملاريا، وطاعون مصحوب بالخراريج، وآخر بالجمرة، وثالث بالتدرن. ولسنا في حاجة إلى أن نصف الدقة المتناهية التي توخاها في وصفه للمرض وأطواره والأشخاص الذين أصيبوا به والمضاعفات التي اعترضتهم.

ولقد نادى بضرورة تدوين الطبيب كل ملاحظاته بدقة وأمانة، وبالرجوع إليها دائماً تحبباً للانحراف عن الحقيقة. إلا أنه لم يذكر شيئاً عن العلاج وكأنه يكتفى بالملاحظة والتأمل، وقد ساور البعض الشك في أن بعض هذا المؤلف منحول إليه.

وفي كتاب تقدمه المعرفة اهم اهتماماً بالغاً بدراسة المرض من حيث التسكهن بمآله، بل إنه غلب ذلك على التشخيص، أى أنه فضل معرفة تاريخ المرض الطبيعي على مجرد تسميته، وهذا التغليب يميز مدرسة (قو) من مدرسة (قنيدوس). وقد قام في هذا المؤلف «بتعريف العلامات التي يقف بها الطبيب على أحوال المرض في الأزمان الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل»، وقال إنه «إذا أخبر الطبيب المريض بالماضي وثق المريض بالطبيب فاستسلم له فتمكن الطبيب من علاجه.. وإذا عرف الحاضر قابله بما ينبغي.. وإذا عرف المستقبل استعد له بجميع ما يقابله به قبل أن يهجم عليه بما لا يهله..» وهذا المؤلف يحمل طابع خبرة (أبقراط) الشخصية.

ومما أخذ عليه، عدد الحالات التي ذكر فيها نهاية سيئة تنبأ بها، وقلة اهتمامه بوصف العلاج. وقد وصف الطبيب (أسقليوس) في القرن الأول ق. م. هذا الاهتمام بتحديد المآل بأنه لا يزيد عن انشغال بالموت.. ولم يذكر ما في وصفه للحالات التي لم ينجح في علاجها من الأمانة العلمية، على عكس (جالينوس) الذي كان دائم التباهي بالحالات التي وفق في علاجها.

ولنذكر الآن بعض أوصافه الاكلينيكية في شيء من الإسهاب.

**السحنة الأبقراطية :** وفي هذا الوصف نرى (أبقراط) يميز بين الوجه (الأبقراطي) العرض، الناجم عن ضياع السوائل نتيجة للإسهال أو الجوع، وبين الوجه (الأبقراطي) الحقيقي، يقول: «هو إن الأنف يكون فيه مدبباً، والعينان غائرتين، والصدغان منخفضين، والأذنان بارزتين.. ويكون جلد الوجه مشدوداً، جافاً، ذا لون أصفر أو قاتم. وإذا كان الوجه على هذه الحال، وإذا تعمّر تشخيص المرض، وجب السؤال عما إذا كان المريض قد أصيب بأرق أو بإسهال غير عادي، أو إذا كان يشكو من الجوع، ففي هذه الحال يكون المرض أقل خطورة، وينذر بحدوث البحران بعد أربع وعشرين ساعة. أما إذا أجاب بالنفي ولم يكن قد برأ من علته بعد هذه الفترة كان ذلك دليلاً على خطورة حالته البالغة».

وهاكم بعض أوصاف إكلينيكية أخرى تتميز بالدقة المتناهية :

«وإذا نفرت العينان من الضوء، أو سالت منها الدموع، أو شردت بطريقة غير إرادية، أو بدت إحداها أصغر من الأخرى، أو ظهرت فيها أوردة سوداء، أو إذا تغير لون الجلد، فإن ذلك يدل على خطورة الحالة وربما على قرب النهاية. ويجب فحص العينين في أثناء النوم، فإذا ظهر بياضهما مع انطباق الجفنين، وإذا لم يكن ذلك ناجماً عن إسهال أصاب المريض، أو دواء تناوله، وإذا لم يكن أمراً عادياً بالنسبة للمريض، فإن هذا العارض يعتبر شيئاً بل خطيراً للغاية، يضاف إلى ذلك أنه إذا تغير شكل الجفن أو الشفة أو الأنف أو أزرق لونها فإن نهاية المريض تكون أوشكت. وإذا تددت الشفتان وبردتا أو ابيض لونها بشدة كان ذلك ينبيء بالمرت»

«فإن التنفس السريع يدل على ألم والتهاب فوق الحجاب الحاجز، أما التنفس العميق البطيء فإنه ينتج من الذهن.. وفيما يتعلق بالنوم ينبغي أن يستيقظ المريض نهاراً وأن ينام ليلاً كما هي العادة، فإن تغير هذا النظام من العلامات السيئة»

عن تقيح البلورا: من أعراضها أن حرارة المريض لا تنخفض وإنما تكون معتدلة في النهار ومرتفعة بالليل، ويتبع ذلك عرق غزير وسعال لا يصحبه بصاق. وتغور العينان، وتظهر بقع حمراء على الخدين، وتنقوس الأظافر.. وفي هذا أول إشارة إلى

الأطراف المقوسة في التاريخ، وقد سميت (بالأبقرافية).

ألم الأذن : ألم الأذن الشديد المصحوب بارتفاع درجة الحرارة يخشى أن تكون نتيجة هذيان المريض ثم وفاته... أما إذا أفرزت الأذن صديداً أبيض، كان ذلك بشيراً بالشفاء.

ولم يهمل (أبقرات) الجراحة. وقد كان علم العظام قد وصل إلى درجة كبيرة من التقدم، والفضل في ذلك يرجع من غير شك إلى عمارسة الألعاب الرياضية العنيفة مثل المصارعة وما ينتج عنها من كسور وخلع. وسأضيف على سبيل المثال ما قاله عن انتقال عظمة الفخذ. فقد وصف (أبقرات) أربعة مواقع لهذا الانتقال. ومن الغريب أنه يقول - على عكس ما نراه اليوم - إن الانتقال إلى الجهة الأنسية أكثر حدوثاً، وقد يكون سبب ذلك «مسكة» خاصة من مسكات المصارعة العنيفة. أما وصفه لهذا الانتقال فلا يفوقه أى وصف جاء بعده... يقول :

«تبدو الساق أقصر إذا وضعت إلى جانب الأخرى، ويرجع هذا إلى سببين : أن رأس عظمة الفخذ ترتكز على العظمة التي تصل المفصل بالعانة، في حين يحمل التجويف الفلقي رقبة العظمة. وتزول استدارة الإلية وتبدو مبسوطة للسبب نفسه وهو انتقال العظمة إلى الداخل، كما أن طرف عظمة الفخذ الأسفل ومعه الساق والقدم ينحرف إلى الخارج. ويتعذر على المريض أن يثني الفخذ على العانة. ويمكن جس رأس عظمة الفخذ في العجان.»

ولرد العظمة كان (أبقرات) يوصى بتعليق المريض من قدميه، ثم يوضع عضد المعالج بين فخذى المريض أى بين العجان ورأس العظمة المنقولة، ثم بالقبض على اليد وهى في وضعها باليد الأخرى بحيث يصير المعالج معلقاً على المريض. وبهذا يضيف وزنه إلى وزن المريض في مد العظمة ويدفع بها في التجويف الفلقي، على حين يرفع عضده العظمة حتى تنزلق نحو موضعها الأصلي. وأوصى كذلك بأن يختار لهذا العلاج مساعد ذكى قوى.

أما كتاب الفصول : Aphorisms، فإنه عد حتى آخر القرون الوسطى خلاصة التعليم (الأبقراتى) وموجز لما جاء في سائر كتبه، مثل الأهوية والبلدان وكتاب الأمراض

وهناك كتب أخرى نسبت إليه منها كتب : علامات القضايا (أى الدالة على الموت)، وعلامات البحران، وحبل على حبل، وفي المولودين في السبعة أشهر، وفي الجنون، وفي الأسابيع، وفي المولودين ثمانية أشهر، وفي الفصد والحجامة، وفي البول، وفي حفظ الصحة، وفي المرض الإلهي (حيث أنكر أن للصرع سبباً فوق الطبيعي)، وفي قسمة الإنسان إلى مزاج السنة، وكتاب الوحي، عدا عدة رسائل للملوك. ومن المؤكد أن بعض هذه الكتب، مثل كتاب الأمراض وكتاب أمراض النساء، من تأليف مدرسة (قنيدوس) وأن كتب الأحلام وطبيعة الإنسان والأهوية والمرض الإلهي من تأليف المدرسة السفسطية.

أما ما قد يكتفى لتخليد اسم (أبقراط) بين الحكماء الملهمين، فهو كتاب الوصية، والقسم الذى فرضه على من كان يبغى مزاولة صناعة الطب : وقد روى أنه فرض هذا العهد عندما شعر بأن الصناعة قد تخرج عن أهل (أسقليبيوس) إلى غيرهم، فوضعه ليستحلف فيه المتعلم لها على أن يكون لازماً للطهارة والفضيلة، ثم وضع كتاب التوصية لتعريف ما يجب أن يتصف به الطبيب من خلق ومظهر وهندام فقال :

« يجب، أن يكون الطبيب فى جنسه حراً، وفى طبعه جيداً، حديث السن، معتدل القامة، متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأى، عفيفاً، شجاعاً. غير محب للفضة، مالكا نفسه عند الغضب، مشاركاً للعليل، مشفقاً عليه، حافظاً للأسرار، محتملاً للشتم، لأن قوماً من المرسمين وأصحاب الوسواس السوداوى يقابلوننا بذلك، وينبغى أن نحتملهم عليه، ولا يستقصى قص أظافر يديه ولا يتركها تعلق على أطراف أصابعه، ويجب أن تكون ثيابه بيضاء نقية، وألا يكون فى مشيه مستعجلاً لأن ذلك دليل على الطيش، ولا متباطئاً لأنه يدل على فتور النفس، وإذا دعى إلى المريض فليقعد مترعاً ويختبر منه حاله بسكون وتأن لا بقلق واضطراب.

وهناك فقرة من القسم أثارت جدلاً حول طابع القسم اللاهوتى، وهل كان الغرض منه الاحتفاظ بالطب سراً قاصراً على بعض المریدين، وها هى الفقرة : وأشرك أولادى وأولاد المعلم لى، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وأحلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك. »

وإذا كان من الصعب البت فى تلك المسألة لضيق الصورة الأصلية للقسم ولما

اعتراها من التبديل والإضافة على يد المدارس المتابعة والكنائس المختلفة، فلإن هذه السرية تبدو كأنها من آثار طقوس (الفيثاغورية، والأورفية) وغيرهما من المذاهب السرية السائدة في هذا العصر.

ولكن الروح العالية المتزهة التي تسود فقرات القسم تظهر بدون شك المكانة الرفيعة السامية التي أحل فيها (أبقراط) مهنة الطب، كما أن تعهد من يؤدي القسم بعلاج المرضى دون الالتجاء إلى أى إجراء لا هوق أو كهنوق يبرهن على وجود فئحة - حتى قبل (أبقراط) - من الأطباء الأحرار في ممارسة مهنتهم، لا يخضعون إلا لقوانين آداب مهنتهم التي أخذوا على أنفسهم بها.

أما عن حقيقة (أبقراط) التاريخية، فإذا أخذنا جدلاً برأى من أنكرها وأكد أنه شخصية خيالية، وإذا قبلنا أن الأغرريق اختلقوه فقد أضاف هذا إلى إعجابنا بهم إعجاباً، فلم يؤلف قوم من الأساطير إلا ما هو جدير به، ولم يختلق شعب شخصية إلا ليودع فيها مثله العليا.

### الطب الإغريق بعد أبقراط

تبع (أبقراط) في المهنة ابناه (تسالديس، ودراكو)، وصهره (بوليس)، وظلت مدرسته محافظة على مكانتها إلى درجة أن الأمراء كانوا يتخبرون أطباءهم من بين أتباعها. وقيل أن أحد هؤلاء الأتباع واسمه (فيلومنس)، هو الذى نقل إلى الإسكندرية في غضون القرن الثالث الميلادى، كتاب (الأويثة) مع سائر كتب مدرسة (قو).

غير أن هذا العصر امتاز بازدهار الفلسفة الإغريقية، فأضاف الفلاسفة والأطباء أوجهاً جديدة إلى طب (أبقراط)، ومن هؤلاء الفلاسفة (أفلاطون) الذى أقحم نفسه على الطب وأخذ يفرق بالجدل الفلسفى بين مذهبي الbiopsychose، القائل بأن الجسم يكيف الذهن و ال psychobiose، القائل بعكس ذلك، وهو الذى أخذ به هو (سقراط) وقد آمننا بخلود الروح وبحرية الإرادة.

ثم نحد من بعدهما (أرسطو) - وكان حظه من البيولوجيا والفلسفة أكثر من حظه

الحادة والأيبديا وكتابه في أوجاع النساء. والفصول مكتوبة على شكل أمثال وحكم عددها ٤١٣. ومع أن البعض تشكك في تبعية بعضها إليه، فإنها تحمل طابع العبقريّة والابتكار، وتم على إمام عميق بالطب وعن خبرة، وكأنه يضع عناصر ليستخدمها خلفه في تشييد بناء كان ما يزال تحقيقه متعذراً عليه. وسأذكر بعضها على سبيل المثال مبتدئاً بأولها، وهي تلخص حكمة شيخ أدرك سراب إمكانات الذهن البشرى فركز في جملة قصيرة دسمة خلاصة تجاربه.

إن الحياة قصيرة، والفن طويل، والفرص عابرة، والتجربة غير مأمونة، والتعقل عسير، لا يكفي أن يعمل الطبيب ما يناسب المريض، ولكن يجب أيضاً أن يساعد المريض، ومن يعاونونه، وكل ما يحيط به.

### وهاكم أمثلة أخرى:

إن التكهن بالإبراء أو بالموت في الأمراض الحادة ليس أكيداً.  
إن الألم والاحمرار يحدثان في أثناء تكوين القيح أكثر من بعده.  
إذا انتاب الإسهال مريضاً مسلولا كان ذلك علامة لنهاية مشؤمة.

إن من يصاب بالمرض الرباعي (المالاريا) لا يصاب بالصرع، إذا أصيب بالصرع وبعده بالحمى فإنه يشفى من الصرع. (لو أن الزهري كان وصل إلى العالم القديم بعد، لكنت أتخيل أن قائل هذه العبارة ليس (أبقراط) في القرن الخامس ق.م.  
ولكنه (واجز ياورج)، الذي عالج إصابة المخ بالزهري بإحداث عدوى المالاريا، وهذا بعد (أبقراط) بخمسة وعشرين قرناً.

وقد جمعت في مقال آخر من الفصول ثلاثة عشر تتعلق بالغدد الصم وأمراضها وثمانية منها خاصة بالحمل والإجهاض، وثلاثة تنصل بالنقرس، وواحداً بالدوالي وواحداً بالعمالقة، واثنين بالصلع. وتبدو هذه الفصول مبنية على حقائق إكلينيكية أكدها البحث الجديد ما عدا أحدها وهو التالي:

إذا لم تنجب امرأة أطفالاً وأردت أن تعرف إذا كانت خصباً أم لا، فلفها في معطف، واعمل لها تبخيراً من أسفل. فإذا شممت رائحة التبخير الصاعدة عن طريق

جسمها إلى أنفها وفها، واعلم أن العقم لا يرجع إليها. « وهذا يذكرنا بوصفة عمالة وردت في (لغافة كاهون) المصرية التي نسخت ١٨٠٠ ق.م.

أما الفصول الأخرى الخاصة بالغدد، فإنها تستند على حقائق يعترف بها الفن الأكلينيكي حتى اليوم :

« إذا تهدل ثديا امرأة حامل دل ذلك على أنها ستجهض. »

« إذا سال لبن كثير من ثديى امرأة حامل، فإن جنينها ضعيف. »

« إذا جاء الحيض امرأة حامل استحال معه أن تكون صحة الجنين جيدة. »

وقال عن العمالقة « إن القامة المديدة السامقة ليست منفرة في مرحلة الشباب ولكنها تصيح في الكبر غير مريحة، وتقل مزاياها عن القامة القصيرة. »

وهذا يطابق ما هو معروف عن شيخوخة العمالقة المبكرة وعن قصر حياة أصحاب الأيدان الضخمة.

وفي الصلغ قال : « إن الأغوات لا يصابون بالصلغ ولا بالنقرس. » وقد تحقق العز الحديث من علاقة إفرازات غدد الذكور الجنسية بسقوط الشعر وتمثيل الحمض البوليك. وفي النقرس أيضاً : « لاتصاب النساء بالنقرس قبل توقف الحيض » و« لا يصاب الأطفال بالنقرس قبل أن يتذوقوا اللذات الجنسية. »

\* \* \*

هذه نبذة عن مؤلفات (أبقراط). وقد ألف كما قلنا كتباً أخرى عدة. قال لىترى إنها تبلغ الاثنى والسعين . وقد عدّ منها العرب ثلاثين أصيلاً، أما التى أو صوا بدراستها لمن يقرأ صناعة الطب، فهى اثنى عشر كتاباً هى : كتاب الأجنة الذى يتضمن القول فى كون المني، وكون الجنين، وكون الأعضاء، وكتب طبيعة الإنسان، والأهوية والمياه وتبلدان، والفصول، وتقدمه المعرفة، والأمراض الحادة، وأوجع النساء، والأمراض الوافدة، والغذاء، وقاطيطريون أى حانوت الطبيب، وفيه ما يحتاج إليه من أعمال الطب التى تختص بأعمال اليدين دون غيرهما وكتاب الكسر والجر.

من الطب - يعكف على الملاحظة، ويقوم بالتجارب البيولوجية، ولا يتحرج عن أن ينادى بإجرائها على أذن الفصائل الحيوانية دون شعور بالاشمئزاز، إذ إنه كان يؤمن بأن الطبيعة لم تخلق مصادفة، ونراه يقسم التركيب organisation إلى درجات ثلاث: أولها تناول الأركان الأولى، وتمنح كل عنصر خواصه الطبيعية، وثانيها تناول الأنسجة المتجانسة مثل العظام أو اللحم، وثالثها تناول الأعضاء المكونة من الأنسجة غير المتجانسة مثل اليدين والوجه وغيرها مما يحتوى على أنسجة مختلفة كاللحم والعظم والأوعية.. إلخ. وكان هذا أول أساس لتقسيمنا مكونات الجسم إلى أنسجة وأعضاء.

ثم يدرس (أرسطو) تطور الجنين ودرجات نموه في البيضة مؤسساً بذلك علم الأجنة. وهو لا يقصر دراسته على مقارنة الأعضاء. عينها في الحيوانات المختلفة كالرثة مثلاً في مختلف الأجناس، وإنما يعنى كذلك بدراسة نظائرها في الحيوانات المجردة من الرثة، مؤسساً بذلك علم التشريح المقارن..

ومن استنتاجاته التي تبدو لنا من أحدث التعميمات أن خلو جسم الإنسان من الشعر أو من أى غطاء آخر، وعدم تخصص أعضائه تخصصاً ضيقاً يميزه بميزتين هامتين على سائر الحيوانات. إذ إنها تسمحان له بتنوع كبير في أساليب الهجوم والدفاع كما تعينانه على التغلب على البيئة (التأقلم) كأن تقوم اليد مثلاً مقام النعل والحافر والقرن والسيف والرمح وغيرها من الأسلحة مجتمعة. هذا لما وهبت من قدرة القبض على كل منها.

غير أن تعاليم (أبقراط) أصيبت بالجمود على مر الزمن، واستقرت في قضايا صلبة يتناقش الأطباء في حرفة ألفاظها دون إعارة أذن اهتمام للتحقق منها، وقد أدى هذا التحول إلى الاكتفاء بمحاولة تفسير النصوص، أما جوهر طريقة (أبقراط)، وهو الملاحظة الحرة الطليقة من كل قيد، والبحث عما يفيد المريض دون الاهتمام بالنظريات، فقد أصبح أمراً ثانوياً لا يبالى الأطباء به. وفي الوقت نفسه حدثت مثل هذه المأساة لفلسفة (سقراط)، حين استحالت إلى جدل عقيم حول نصوص وتأملات ميتافيزيقية، فاضمحلّت المدارس الكبيرة وتحولت إلى طوائف صغيرة

الانتقال إلى الاسكندرية: وقد شاهد القرن الرابع ق. م. حوادث قلبت تاريخ

العالم. فعندما دخل الإسكندر المقدوني مصر وآسيا، انتقلت معه الحضارة الإغريقية وسارت في إثره. وانتشرت في الشرق وجاورت الحضارات الشرقية وتأثرت بها حتى وصلت إلى الهند، غير أنها تركزت في مدينة الإسكندرية وكانت قد أنشئت سنة ٣٣٢ ق.م واحتلت مركز التجارة في البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت ملتقى كل الحضارات. فازدادت ثروة البطالمة بعلم الإغريق وفلسفتهم وفنهم، هذا أن هذه الأسرة المستنيرة استقدمت الفلاسفة والعلماء وتوفرت على مجموعة ضخمة من مؤلفات الإغريق وغيرهم، حصلت عليها بشتى الطرق، وكانوا يدفعون أثمان الكتب وزنها ذهباً ولم يتورعوا عن استعارة كتب ورد نسخ منها، أو عن الاستيلاء على ما يملكه المسافرون من كتب واستبدال غيرها بها.

وإذا بالإسكندرية تفخر بأعمال (أقليدس، وبطليموس) وغيرهما، وبالكشوف التي وصلوا إليها في ميادين الفلك والرياضة والهندسة والجغرافية، وإذا بالأذهان تفتتح إلى أديان جديدة ومذاهب غريبة حتى تخالطت الواقعية بالصوفية وبالشك الفلسفي وبأغرب الخرافات.

وفي مجال التشريح، بصفة خاصة، وفق السكندريون إلى قلب الأوضاع القديمة عندما رفع (بطليموس سوتير الحظر عن تشريح الجثث البشرية).. وكان أبرز رواد هذه الحركة اثنان من الأيونيين نشأا في مدرستي (قو وقنيدس) المتنافستين، وهما:

١ - (هيروفيلس) المولود في كلدونيا من أعمال بيشينيا بآسيا الصغرى، وتلميذ (براكساغور) القوى، أحد (الأسقليبياد الأباطرة).

٢ - و (أيرازستراتس)، تلميذ مدرسة (قنيدس)، وعلى حد قول جاء على قلم بلييني - وإن كان مشكوكاً فيه - ابن أخى (أرسطو) أو ابن أخته، غير أن علاقة أخرى كانت تربطه (بأرسطو) من حيث أنه تتلمذ على زوج ابنة هذا الفيلسوف.

واغتم العالمان فرصة السماح بالتشريح، فأرساه بنشاط حتى أن (سلسوس) الروماني أتهمهما فيما بعد بتشريح الأحياء، وأن ترتوليان أحد آباء الكنيسة لقب (هيروفيلس) بقصاب يكره البشر لاكتساب المعرفة. ولكن هذه التهمة برأهما منها النقاد، ولئن صدقت

التهمة لكان (جالينوس) - بداهة - وهو الذي لم يُكن (لايرازستراتس) عواطف الصداقة، رماهما بها.

ومع أن شيئاً من إنتاجهما لم يصل إلينا فإننا نعرف عنها الكثير وذلك من مقطوعات مؤلفاتهم المنقولة في كتب (جالينوس، وروفس الأفسسي، وسورانس، وديوسقوريدس، وبليني، وبلوتارخ، وسترابو) وغيرهم.

كشف (هيروفيلس) (حوالي ٣٠٠ ق.م) عن أعصاب النخاع وعن منبتها فيه، وميز بين الأعصاب والأوعية والأوردة والشرايين بسمك جدرانها وبرهن على أن الأذنين جزءان من القلب وأطلق اسم الاثنى عشر على جزء الأمعاء المسمى بهذا الاسم، وتعرف على الأوعية اللمفاوية اللبنية، ووظن إلى أنها تنتهي في أعضاء خاصة بها، ووصف أغشية العين الثلاثة، وقد عنى عناية خاصة بالمخ وبيطونه وبالصفيرة المشيمية وبجيوب المخ والمخيخ، وأطلق على السحايا اسمى الأم الجاف والأم الحنون. ثم أنه ميز بين أعصاب الحس وأعصاب الحركة. هذا ولو أنه خلط بين أعصاب الحركة والأوتار، وأصر على تسمية عصب الإبصار بالمسامية، وهو أول من عد النبض مستعينا بساعة مائية. وأفاض في دراسته للنبض أفاضة شملت اختلافات الحجم والسرعة والإيقاع، كما شملت تقسيمه إلى: الكبير والملئ والضيق والسريع والفلى والمتنظم وغير المتنظم والمتقطع والمزدوج والدودي والمتنوع، ووصف أوقاته، ووقفاته، وفواصله. على أن هذه الدراسة أثار (جالينوس) فهاجمه وتحامل عليه.

ولم يكن للروح - في نظر (هيروفيلس) - وجود مستقل، فالحياة تنظمها قوى أربع:

القوة المفكرة: المركزة في المخ.

القوة الحاسة: المركزة في الأعصاب.

القوة الحارة: المركزة في القلب.

القوة الغذائية: المركزة في الكبد.

وقد حذق فن التجبير، واشتهر في الجدل. روى أن السفسطى (ديوروس خرونوس) دعاه لرد عظمة كفه، وكان (ديوروس) ممن ينكرون حقيقة الحركة، مستندا إلى حجة منطقية غاية في التعقيد والسفسطة وهي:

« إذا تحرك جسم فإنما تحرك أما في الموقع الذى هو فيه، وأما في موقع ليس هو فيه، ولا يجوز أن يكون في الموقع الذى هو فيه إذ إنه في هذه الحال يكث فيه، كما أنه لا يجوز أن يكون في موقع ليس هو فيه، إذ كيف يوجد حيث هو ليس بموجود، والنتيجة هى أنه لم يتحرك البتة.

فلما زاره (هيروفيلس) قال له : إذن فإنها لم تنتقل البتة. ثم رد الكتف إلى محلها وأقنع (كرونوس) بحقيقة الحركة. وكان - إلى ذلك - خبيراً بأمراض النساء، فقد وصف أنابيب فالوب، والرحم وأوعيته، والمبيضين وأسماهما الخصيتين ويحكى - في هذا الصدد - أن ممارسة الطب في أثينا كانت محظورة على السيدات، وأن النساء، بسبب خجلهن من الرجال، كن لا يحظين بعلاج مستوف وأن هذا الوضع أثار استياء شابة أثينية اسمها (أجنوديس)، فقصت شعرها وتنكرت في زى الرجال وتعلمذت على (هيروفيلس) في الإسكندرية، ثم مارست مهنتها بأثينا. وكانت إذا ما أبدت مريضة خجلها منها تكشف لها عن حقيقة جنسها. غير أن أطباء أثينا أخذتهم الغيرة من نجاحها فاتهموها بإغراء مريضاتها ظناً منهم أنها رجل. لما كان منها إلا أن كشفت عن جنسها أمام المحكمة ، فبرأتها وإن حرمت عليها الممارسة وأثار هذا الحكم خميصة النساء اللاتي أشفتن وإثارة أدت إلى إلغاء القانون.

ومهما يكن من صحة هذه الرواية الشائقة فهناك ما يشكك في هوية أستاذها (هيروفيلس)، أى فيما أنه (هيروفيلس) هذا الذى نحن في صدده.

أما (إيرازستراتس) (٣١٠ - ٢٥٠م) وهو من أتباع مدرسة (قنيدوس) المنافسة لمدرسة (قو الأبيقراطية) فقد استند، أول مرة في التاريخ، إلى العلوم التجريبية لتعليل الظواهر الجسدية، منها فيزياء الفراغ وفكرة نفور الطبيعة من الخواء التي اتخذ منها أساس فسيولوجيا جديدة قائلاً إن اتساع الصدر في أثناء الشهيق يجذب الهواء داخل الصدر، وإن انبساط القلب يجذب بالمثل الهواء من الرئة. ثم ذهب إلى أن الشرايين تمتلك خاصة انبساط ذاتية تجذب بموجبها الهواء أو « النفس » من نصف القلب الأيسر، كما أنه علل النزف من الشرايين، لأنها في رأيه خالوية من الدم، باندفاع الدم من الأوردة إلى الشرايين بدافع الفراغ الناتج في الشرايين عند خروج الهواء منها، فاستنتج من هذه الظاهرة المزعومة وجود صلات متطرفة بين الأوردة والشرايين.

وقد تطورت على يديه نظرية النفس pneuma التي شغلت مركز (الطب الجاليني).  
والنفس في (الموسوعة الأبقراطية) كان له معان متعددة: كان في وقت معا بخارًا رقيقًا  
يملا كل فراغ في الجسم، وهواءًا مغذيًا، وبمجرد غذاء. وكان (إيرازستراتس) أول من بين  
أن القصبة الهوائية يجرى فيها الهواء لا الغذاء، ولذا أسماها الشريان الخشن، وهو اسمها  
اليوم بالفرنسية trachée artère، وأضاف أن الفلكة تنثى في أثناء البلع لتغلق فتحة  
القصبة إغلاقًا محكمًا، وهذا على نقيض العقيدة السائدة وقتئذٍ وفحواها أن هذا  
الغضروف لا يوقف إلا الأجزاء الصلبة من الغذاء وأن وظيفته تقسيم السوائل بين المعدة  
والرئة لتوفر للرئة الرطوبة التي تحتاج إليها ولننظر الآن إلى النظرية الجديدة كما رسمها  
هذا العالم: يدخل النفس إلى القصبة ومن ثم إلى الرئة، ثم ينقله الوريد الرئوي إلى  
البطين الأيسر حيث يتحول إلى الروح الحيوان الذي تعتمد عليه كل العمليات الحيوية.  
ويوزع القلب هذا الروح إلى شتى أجزاء الجسم عن طريق الأورطا وفروعها. والشرايين  
ملیئة بهذا الروح ولا تحوى دما. في حين أن الأوردة لا تحوى من الروح شيئًا سوى نزر  
يسير يفد إليها من الشرايين عن طريق اتصالات متطرفة لتغذى به.

وفي الأنسجة يختلط الروح الوارد إليها من الشرايين بالدم الوارد من الأوردة. ووظيفة  
الدم تغذية الأنسجة في حين أن وظيفة الروح تنشيطها. ومن التقاء الاثنين تتولد  
الحرارة، والطاقة، والحياة.

أما في المخ فإن الروح الواصل إليه يتحول في البطون إلى جوهر غاية في الدقة هو  
الروح النفساني، ويسرى هذا الروح من البطون إلى أعصاب الحركة والعضلات لينقل  
إليها أوامر الإرادة. وقد اختلف (إيرازستراتس) عن (هيروفيلس) حين أكد أن الأعصاب  
تنشأ من الأم الجافة، وهذا رأى خاطيء، ولكنه له تعليقان يضعانه في مركز ممتاز بين  
أعظم الباحثين، إذ إنه ربط بين حدة الذكاء وبين عدد تلافيف الدماغ، كما ربط بين  
نمو تلافيف المخيخ وبين سرعة حركة الحيوانات كالآرانب والإبل.

أما الروح بمعناه المجرد فتخيل مركزه في البطن الرابع، حيث يلتقى الروح النفساني  
بالذبذبة القادمة من المحسوسات الخارجية فيتحقق بهذا الالتقاء الحس. وكان - إلى  
هذا - أول من اهتم بمجاله الأنسجة المرضية، وبمبحث عن سبب عضوى للأمراض  
كالتهاب البلّورا والحمور، واكتسب بذلك لقب (فرشو<sup>14</sup> عصره)، فربط بين الاستسقاء

وتصلب الكبد، وعرف أن لكل عضو ثلاثة أنواع من «الأوعية»: الشرايين والأوردة والأعصاب، وكشف عن صمام القلب الثلاثي، غير أنه اعتقد أن وظيفة صمام القلب المترالي هي الحيلولة دون خروج الروح الحيوان من القلب عن طريق غير الأورطا.

وفي صدد فلسفته الفسيولوجية، يمكن القول بأنه أول من فطن إلى الفكرة التي أسس عليها (جالينوس) طبه فيما بعد وهي أن الطبيعة لا تخلق شيئاً إلا وعينت له وظيفة.

وقد اشتهر في علاجه للمرضى كما اشتهر في العلم البحث، ابتكر القسطرة المنحنية، وكان مترئناً في وصفاته، وهاجم المفرطين في الفصد والشرب، وكانت له ملاحظات سريرية دقيقة كانت أبرزها إدراكه أن سبب مرض (أنتيوخس) هو حبه (لستراتونيس) زوج أبيه.

وعندما أصيب عن كبر بقرحة في قدمه شرب سم الشوكران ليضع حدًا لاسقامه.

وإذا قارنا هذين العالمين الذين غيرا ملامح العلوم تغييراً جذرياً، حتى أن نقول إن (هيروفيلس) أعار شكل الأعضاء التشريحي أغلب اهتمامه، على حين اهتم (أيرازستراتس) بوظائفها. وكان الأول - لانتائه إلى مدرسة (قو الأبقراطية) - مستمسكا بنظرية الأخلاط، في حين أن الثاني - المنتسب إلى مدرسة (قنيلدس) - كان أوسع تحيلاً، فعنى بالأنسجة، وأدخل في الطب أفكاراً جديدة كفكرة الامتلاء أو الاكتظاظ، ونسبة المرض إلى تعفن الفضلات في الأمعاء، وقوله وإن سبب الحمى والالتهاب، هو أن الدم يضل السبيل فيتسرب إلى الشرايين حيث يعوق النفس ويشبه عن طريقه، وأن سبب الشلل دخول الأخلاط في الأعصاب وسد سير الروح فيها.

لم يدم هذا الانفجار العلمي طويلاً، فقد أخذ الأطباء الذين ادعوا تبعيتهم لهذين العالمين، واكتفوا بمناقشة نصوص آساذبها مناقشة عميقة، ولم يقتدوا بها في الاعتقاد على الملاحظة المجردة، فإذا بهم ينقسمون إلى فريقين: فريق (الهيروفيلين) وفريق (الأيرازستراتيين)، وظلت المدرستان قائمتين إلى ما بعد القرن الأول الميلادي هذا ولو أن الثانية عمرت أطول من الأولى بقليل.

وقد تدرجت من المدرستين مدارس أخرى، منها الترمية dogmatist التي تمسكت

بالنصوص واحتمت (بأفلاطون، وأرسطو)، والمدرستين الفلسفتين (الأيكور<sup>(١٣٩)</sup>)  
الرواقية<sup>(١٣٨)</sup>)، ومدرسة أخرى ثار أتباعها على هذه الاتجاهات النظرية فأنشئوا مدرسة على  
قدر كبير من الأهمية (بين ٢٧٠ و ٢٢٠ ق.م.) وهي المدرسة (التجريبية (ampiricist)،  
التي تجرد أتباعها عن تعاليم الطب الفلسفي وأنكروا إمكان معرفة وظائف الجسم على  
حقيقتها، بل أنكر البعض منهم فائدة هذه المعرفة، وسمى أتباع هذا المذهب الأخير  
(الشكوكيين (Sceptics)، وأكدوا أن التجربة هي وحدها التي تعلم فن الطب وأن الطب  
لا شأن له بالمناقشات وإنما ينبغي أن يستمد مادته.

**أولاً: من الملاحظة الشخصية.**

**وثانياً: من الملاحظات الغير التقليدية.**

**وثالثاً: من القياس، وسموا تلك المصادر الثلاثة للبحث tripod أى القاعدة ذات  
الأركان الثلاثة.**

ولقد أشاد أتباع هذه المدرسة الجديدة (بأبقراط) قدوة لهم. وأشهر من برز بينهم هو  
(هيراقليدس) وهو من طارنطا، وكان طبيباً وجراحاً ذائع الصيت، امتاز بإحاطته بالمادة  
الطبية، شأنه شأن كل أطباء هذه المدرسة، وهو الأمر الذي حدا ببعض الملوك إلى  
التلمذ عليهم رغبة في الوقوف على أسرار العقاقير والسموم إما لا استعمالها سياسياً أو  
للاحتياط منها. وكان متريدات السادس ملك البنط من بين هؤلاء التلمذيين، وقد زعم  
أنه وفق في الكشف عن مادة مضادة للسموم، وكان أول من حاول تحصين الجسم  
بمجرعات متكررة متزايدة من السم، الأمر الذي أدى إلى تسمية الحصانة بطريقته  
«متريداتزم». إلا أن هذه المدرسة كانت تحمل في نفسها بذور الانحلال، لأنها حصرت  
اهتمامها في العارض الموضعي وأغفلت وحدة الجسم المتكاملة.

وقامت في النصف الأول من القرن الأول الميلادي مدارس أخرى منها مدرسة  
(النفثيين) التي نشأت على شكل فرع من المدرسة (الترتمية) وأنكرت حقيقة المادة وآمنت  
بوجود جوهر أول فريد هو النفث منشأ كل مظاهر الحياة، وقالت إن الصحة النامة  
تتحقق بكمال حالة الروح أو النفث (pneuma) وبالتوتر (tonus) الذي تنتجه أو تحتفظ  
به، وإن درجة التوتر تعرف عن طريق النبض، وإن المرض إن هو إلا حالة غير طبيعية  
في النفث تنجم عن عدم توازن الأخلاط. وهنا نلاحظ أولاً أثر مدرسة (أبقراط)،

وندرک ثانياً علة اهتمام هذه المدرسة بفحص النبض وبالعلاج بالمنهجين الطبيعي والغذاء، وعلى النقيض من هذه المدرسة قامت المدرسة التوفيقية (eclectic) التي حرص اتباعها على عدم التحيز لأى مذهب مفضلين تختيار ما يروقهم من كل منها. وكان أبرز أنصارها (جالينوس) الذى سنعرض له فيما بعد، وظهر فى أول القرن الثانى الميلادى (روفوس) المنسوب إلى (أفسس) الذى ندين له بالكثير مما وصلنا عن النبض، وقد ترك (روفوس) مؤلفا فى التشريح قال فيه مثلا إن الكبد الأدمى له خمسة فصوص، وهذا يدل على تشريجة الخنزير، وهو أول من وصف الطاعون والحمرة، وكان يوقف النزف بالضغط والعقاقير القابضة والكى ولوى الشرايين وربطها، وترك مؤلفات فى الغذاء انتفع بها من خلقه ولا سيما العرب.

وظهر فى هذه الحقبة أيضا (أريتاكوس Aretacus)، الذى قيل عنه إنه عاش فى الاسكندرية. وقد فطن إلى حدوث الشلل فى الجهة العكسية إذا كانت علتة فى المخ، وفى الجهة نفسها إذا كانت فى النخاع، و (دياسقوريدس) الذى ألف ستة كتب منها خمسة فى العقاقير، والسادس فى السموم.. وهى جميعاً من أهم المراجع فى الموضوعات التى تناولها وأساساً لدراسة طب الأقدمين وطب العصور الوسطى.